«مشاكل المياه بالجزائر العاصمة في العهد العثماني

«مشاكل المياه بالجزائر العاصمة في العهد العثماني

د. بلحميسي مولاي : رئيس الفرقة *
معهد علم الآثار

ملخص العمل المنجز

لقد عرفت الجزائر في الماضي أزمة المياه الصالحة للشرب بسبب الجفاف المتكرر وقلة الوسائل لتوفير هذا السائل الحيوي ولتكاثر السكان في الفترة التي تعنينا وأخيرا بسبب التبذير وقلة الوعي .

ولازال الأمر على حاله اليوم .

غير أن العاصمة ما بين القرن 16 والقرن 19 تغلبت الى حد بعيد على هذا المشكل العويص فترى كيف تصدّى له المسؤولون آنذاك وكيف تكيفوا مع الوضع حتى تحوّلت الأزمة الى نعمة ؟

وعلى هذا السؤال يجيب المقال :

فمن أهم ثروات العاصمة وضواحيها وفرة المياه بشهادة القاطن والزائر فهي مصدر البذخ والرفاهية وموهبة نادرة حول البحر الأبيض المتوسط .

غير أن هذا المكسب الهام لم يلفت نظر الباحثين وراح المؤرخون يبذلون الجهود حول الغزو البحري والقراصنة والمعارك البحرية والأسرى النصارى والانقلابات الداخلية تماشيا مع ذوق العصر .

أما الجزائر الخضراء جزائر العيون المنهمرة والبساتين الناعمة والمياه المتدفقة مصدر الثروة والاعجاب فقد عجز عن وصفها مؤرخون ورحالون وأدباء ما عدا اشارات طفيفة .

ومرت قرون وأعوام وأكل الدهر وشرب على منجزات مثل الصدف وأجهزة اثارت يومها

(☆) رئيس الفرقة .

اعجاب الأجانب وفعل الاتلاف والاهمال عملها حتى أصبح من الأولويات العودة الى ماضي العاصمة والى عصرها الذهبي والحمد لله أن انتبه غربيون مثل هايدو وشاو وفروماتان من بين نخبة من محبي الفن والجمال والابداع والرسم فتركوا هنا وهناك في كتبهم ما يدعو الى البحث الشامل والغاية من هذه الدراسة نصا وصورا هي لفت نظر المواطن حالياً فإن الماضي المزدهر بما جادت به الطبيعة ومابذله السلف الصالح من جهد وذوق ووعي وانضباط لجدير أن يطلع عليه سكان الجزائر . واذا استحال احياء كل ماضي فان ما قدمناه لكاف لاعانة المسيرين على التحكم في مشاكل المياه والتغلب على قساوة الطبيعة فقد نجح الأوائل وأي نجاح فلم لا يفوز المعارصرون ويعود رونق الأمس الى جزائر بني مزغنة .

وقسمنا البحث الى مقدمة وأربعة فصول :

1 - من القرية الى المدينة :

لكي يُفهم التطور العجيب الذي حدث في مطلع القرن 16 لابدّ من الوقوف عند المدينة المتواضع و قبل قدوم الاتراك وقد شح الكتاب آنذاك بالمعلومات فلا ابن حوقل ولا المقدوسي ولا البكري ولا الادريسي يقدمون وصفاً كاملاً شاملاً واكتفى كل واحد بذكر عين ماء أو بوصف سوق وربما يعود السبب الى كون بجاية أكثر شهرة من قاعدة الثعالبة في ذلك الوقت . وسار على هذا الدرب المغربي محمد العبدري وعبد البسيط بن خليل .

وأول من عرفنا بالجزائر تعريفاً وافياً هو محمد بن الحسن الوزان في أوائل القرن 16 فقد خصص في كتابه وصف افريقيا فقرات لما عاينه وماسمعه بعين المكان .

وعرف المغرب الأوسط في مطلع ذلك القرن تقلبات سياسة هامة ولذلك أسباب داخلية وأخرى خارجية : ضعف بني عبد الوادي أصحاب تلمسان وتقلص مملكتهم وكثرة الامارات والمشيخات شبه المستقلة من جهة وتسلط الاسبان - بعد نكبة الأندلس (1492) على مدن ساحلية مثل وهران والمرسى الكبير وبنيون الجزائر وبجاية مما جعل المسلمين في مدينة الجزائر يستنجدون بجماعة من غزاة الأتراك . وجاء هؤلاء واستقروا بالمكان وحولوه الى قاعدة أساسية ثم الى عاصمة ايالة (1518) هاجر إليها عدد من الأندلسيين ووفد عليها جمع من المشارقة وآخر من الأهالي ورابط بها جيش وانطق منها غزاة البحر وكثرت الحركة وتزايد النشاط وراجت بها التجارة ...

وما هي الا سنوات حتى عاشت المدينة تطوراً ملحوظاً يظهر في كثرة المرافق مثل المساجد والحمامات والأفران والفنادق والثكنات على أن الأعجوبة الكبرى تبقى محصورة في مرسى المدينة

نظراً لنشاطه المتزايد والكل يحتاج الى الماء .. الى كميات هائلة لتلبية الحاجة .

2 - **الانجازات الكبرى :**

كان السكان - قبل أن يتضاعف الطلب - يكتفون بسد حاجياتهم اليومية من «العيون» داخل الأسوار أو خارجها ومن الآبار الموروثة والتي أصبحت بحكم التطور والنسيج العمراني الجديد غير كافية .

ولجأ سكان المدينة لاسيا في الشتاء الى ما تجود به السماء فقد تفننوا في جمع مياه الأمطار من السطوح الي الخزانات تحت الأرض غير أن الجفاف كان يحرم الأهالي - المرة بعد الأخرى - من منافع الغيث ..

ولا غرابة اذا لاحظنا العناية التي كانت تولى للسطوح وللقنوات وللخزانات ولمصارف المياه حتى يتحصل السكان على كميات من الماء هم أحوج الناس إليها عندما تحاصر مدينتهم وقد وقع ذلك مراراً .

وما أن استتب الأمن حتى فكر المسؤولون في حل جذري ألا وهو جلب المياه من بعيد من الضواحي حتى لا يبقى السكان تحت رحمة الطبيعة المتسببة في قلة ماء العيون والآبار والأمطار .

فقام الأهالي أغنياء وفقراء وقامت السلطات بانجاز مشروع جريء : بناء قنوات (Aquedues)وهكذا أنجز على التوالي :

قناة التليلي سنة 1550 وطوله 3600م .

قناة بئر طرارية سنة 1573 وطوله 1700م .

قناة الحامة سنة 1611 وطوله 4300م .

قناة عين الزبوجة في القرن 18 وطوله يفوق 5000م .

وبفضل هته القنوات توفرت المياه في القصبة والجبل والوطا وخف الضغط ونشطت المؤسسات وعم الأخضر واعشوشبت الأرض ... وزال شبح التقتير ونظمت الحياة على شكل جديد .

غير أن العهد العثماني في الجزائر يعرف أيضا بانشاء «السبالات» أو العيون وقد بلغ عددها 125 في مساحة لا تتعدى 50 هكتاراً وكان لبناء «عين» من أهم الأعمال الخيرية ولذا تقاسمتها الأحياء ومنها المتواضعة ومنها الفاخرة من حيث البناء والزخرة والكتابات ووصلتنا بعض

الأسماء منها عين العطش والعين المزوقة والعين الجديدة وعين الصباط وعين السلطان والعين الحمراء وشغف الباشوات والدايات ببناء العيون داخل المدينة وخارجها واشتهر من بين هؤلاء أحمد عرب (1472 – 1574) وبابا علي النقسيس (1754 – 1766) والداي حسين .

ومن الناحية الفنية كان لكل عين بطاقتها : كتابات عربية أو عثمانية على مرمر أو زليج تخلد ذكر الباني وتذكر محاسنه وتاريخ الحدث والدعاء له ..

والجدير بالذكر أن العيون كانت عمومية ولفائدة «الحكومة» ولم يسمح لأحد مهما بلغت رتبته الاجتماعية أن يدخل الماء الى داره .

فجعلت المواد المستعملة والزخرفة والتأنق والكتابات والعناية من هذه العيون آية في الفن والجمال والشاهد ما قاله الفنانون والكتاب الغربيون مثل فروماتان وطرح السؤال حول صلاحية هذه المياه هل هي عادية هل هي عذبة فاختلفت آراء من تطرق الموضوع وغالب الناس يقولون بأنها صالحة للشرب ما عدا العيون والآبار الداخلية الملوثة بموجب المحيط .

3 – تسيير الجهاز المائي :

نظرا لتكاليف الانجازات ونظراً لأهمية الخدمات التي تقدمهاالقنوات والعيون والخزانات ونظراً للحاجات اليومية من المياه ، أسست الدولة ادارة خاصة للسهر والتسيير فهناك موظفون وعلى رأسهم قايد العيون وقائد الشوارع والبناؤون والخبراء همهم الوفرة والسير الحسن للجهاز وتلبية الحاجات اليومية بفضل المراقبات والترميمات وزجر المخالفات .

وبما أن هذا يحتاج الى أموال فان الأهالي لجأوا الى الأحباس (الأوقاف) والدولة الى الخزينة لكي يبقى الجهاز في نشاط ولكي تتحقق مشاريع أخرى ، وكثرة العقود (عقود البيع والهبات والأحباس) الموجودة بدار الأرشيف والمكتبة الوطنية تدل على مدى انشغال الناس بقضايا المياه وعلى إيمانهم بأن الماء هو الحياة وهو السعادة فساهم كل ساكن في تحقيق هذا الحلم ... والجدير بالذكر أيضا هو مساهمة النساء في حل مشاكل التموين والادخار فهذه دومة بنت محمد تحبس خزاناً من نحاس على سيدي عبد الرحمان الثعالبي وأخرى متجرا لاصلاح عين وهكذا .

وكثرة الاستعمال تسرع بالخلل والعطب فهناك انقطاعات بسبب هشاشة القطع (وكانت من طين(فلا تقاوم كثيراً وهناك تصدعات بسبب انزلاق أو زلزال وهناك تخريب وهناك افراط في الاستعمال ولا ينفع إلا مال وافر وقوانين صارمة وتعويد السكان على الاستهلاك المعقول ومراعاة الصالح العام .

وبصدد الحديث على العيون فلابد من وقفة عند الحركة اليومية وتردد السكان طيلة النهار على تلك الأماكن .

فهناك السقاؤون المحترفون المعروفون بلباسهم الخاص وأوانيهم الثقيلة ومنهم باعة الماء يترددون على المنازل والمقاهي والشوارع لعرض بضاعتهم وينافسهم القراب هو أيضاً يلفت النظر بمضله وقربته وطاسه النحاسية .

ويكثر الازدحام ويعلو الضجيج ويتبادل الناس الحديث في انتظار «دورهم» وهذا ذاهب الى العين وذاك عائد منها العبيد والعجائز والصبيان لا يبرحون المكان ولاحظ الملاحظون أنواعا من الأواني لحمل الماء فالقرب والجرار والقلل «والأقباب» متنافسة حجماً ووزناً .

4 - الفحص :

عندما اكتضت المدينة داخل الأسوار بسكانها ومؤسساتها فتحت أبوابها للراغبين في الاقامة بالضواحي فانتشر الناس من بوزريعة الى باب عزون الى باب الوادي الى بني مسوس الى مراد رايس والأبيار والقبة والحامة .. وآوت كل ربوة واستقبل كل سهل عائلات أو معامل ومصانع لوفرة المياه وتعود الناس الاقامة بالمكان ربيعاً وصيفاً وخريفاً .

واشتهر الفحص بالأودية المنحدرة الى البحر وبالعيون العذبة وبالأبار المجاورة للمعابر فبنت هناك الديار والمقاهي واسست مصانع القرمد والآجر والحصون الدفاعية والأفران لصنع الجير ، وبرزت - وسط الفحص وحول المدينة حياة وتقاليد ونشاط محركه الماء فاخضرت الحقول وترعرعت الأشجار المثمرة وتوفرت الخضر والفواكه وسمنت الحيوانات وغردت الطيور وتغنى بذلك شعراء ورسم ذلك فنانون ومدح الكتاب وذهبوا بعيداً في مقارناتهم وانطباعاتهم ووقف الناس عند العيون الخارجية عين بئر خادم والعين الزرقاء وعين الربُط وغيرها من التي كانت محل زيارات كعيون العلاج وما أكثرها وما أكثر النساء على طلب مساهمتها في حل مشاكلهن كالعقر والحب ومطاردة الجن ... وكانت هته العيون الخاصة محل احتفالات أسبوعية ومصدر تقاليد غريبة كنحر الدجاج وقراءة الأدعية وتوزيع الصدقات . ولم تفت الأجانب الوقوف عند «سبع عيون» خارج باب الوادي ...

وجاءت الطامة الكبرى ومأساة 1830 وشرع الدخلاء في التخريب والهدم والتحويل فلم تسلم من يده مساجد ولا قصور ولا «عيون» داخل المدينة ولا خارجها وديس الفن والجمال وعالم الحضارية وكسر جهاز الري والشرب وعبث الى درجة أن الكتاب النزهاء من الفرنسيين نددوا واحتجوا على الهمجية والوحشية .

والخلاصة أن تاريخ المدينة من خلال منجزاتها وثرواتها المائية جدير بأن يكتب لعدة أسباب : فهو مخالف لما عودنا به المؤرخون من عنف وقتل وغزوات وحصارات الخ .. فالماء في الجزائر هو الحضارة والتمتع بالحياة فثروة العاصمة في تلك الفترة ليست في غنائم البحر ومفاداة الأسرى بل هي في رخاء العيش وكثرة المنتوجات وانضباط السكان ومحافظتهم على أغلى مكسب .

ويتبع هذا البحث خرائط مختلفة ووصور متنوعة خاصة بكل فصل من فصول العمل : عيون - سواقي - قنوات - أواني - دور فحصية - معامل - مقاه ... ويقتضي ذلك نوعية البحث فنصفه نصوص ونصفه رسوم حتى تزيد صورة الجزائر وضوحا فيزيد التشوق الى اكتشاف ماضيها الزاهر وتؤخذ العبرة مما ناضل من أجله السلف الصالح وما حققه بالارادة الفولاذية أكثر مما تحقق بالمال ...